سورتا (الضحى) و (الانشراح) ، دراسة تحليلية

الأستاذ الدكتور
عقيل عبد الزهرة مبدر الخاقاني
جامعة الكوفة - كلية الآداب

سورتا (الضحى) و (الانشراح) ، دراسة تحليلية

الأستاذ الدكتور
عقيل عبد الزهرة مبدر الخاقاني
جامعة الكوفة - كلية الآداب

تعدُّ سورتا (الضحى) و(الانشراح) من السور المكية، وقد وردتا مترادفتين في الكتاب العزيز، بالتسلسلين : (٩٣) و (٩٤). وقبل أن نفصّل القول في المضامين الفنية والفكرية لهاتين السورتين؛ يحسن بنا أن نوضّح المراد بـ(المكي) و(المدني)، ذلك بأنَّ كثيرا من الناس، متخصّصين وغير متخصّصين، يعتقدون بأنَّ (المكي) هو ما نزل بمكة فقط، وبأنَّ (المدني) هو ما نزل بالمدنية فقط، ومن ثمَّ فإنَّ سور الكتاب العزيز لابدَّ من أن تكون قد نزلت في مكة أو في المدينة. وحقيقة الأمر أنَّ المراد بـ(المكي) ما نزل قبل الهجرة وإن كان في غير مكة؛ وأنَّ المراد بـ(المدني) ما نزل بعد الهجرة وإن نزل في غير المدينة، على أنّ كثيرا من سور القرآن الكريم وآياته قد نزلت في مكة وما جاورها كمنى والحديبية؛ ومنها ما نزل في المدينة وما جاورها، كأحد وقباء، في حين نزل قسمٌ آخر منها في الجحفة والطائف، بل منها ما نزل في بيت المقدس. ثمَّ أنَّ منها ما حُمل من مكة إلى المدينة ومن المدينة إلى مكة أو من المدينة إلى أرض الحبشة؛ فضلا عن وجود كثير من الآيات المدنية في السور المكية والآيات المكية في السور المدنية؛ ذلك بأنَّ سور الكتاب العزيز وآياته لم ترتب ترتيبا زمنيا أو مكانيا، وإنّما رتبت ترتيبا توقيفيا، على هذا النحو المعجز الذي بين دفتي الكتاب.

أما السور القصار ـ التي نحن بشأن الحديث عن اثنتين منها، وهما: سورتا (الضحى) و(الانشراح) ـ فإنَّ أغلب هذه السور قد نزلت في العهد المكي، أي في مكة أو فيما جاورها، قبل الهجرة النبوية الشريفة إلى المدينة المنورة، وهي تمثل مرحلة الخطاب القرآني الأول.

تتكون سورة (الضحى) من إحدى عشرة آية، والمفسرون مجمعون على أنَّ سبب نزولها هو: إبطاء الوحي عن النبي(ص) مدّة من الزمن، حتى شقَّ ذلك عليه، وشمت به المشركون، وقيل ـ فيما قيل ـ: إنَّ محمدا قد ودّعه ربُّه وقلاه[١].

ومهما يكن مقدار المدّة التي انقطع فيها الوحي عن الرسول وما قيل في هذا الانقطاع؛ فالذي يعنينا ـ هنا ـ الوقوف على المضامين الفنية والفكرية لهذه السورة والسورة التي تليها، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب[٢].

تبدأ سورة (الضحى) بالقسم بـ﴿والضُّحَى والليلِ إذا سَجَى﴾، فالمراد بـ(الضحى): صدرُ النهار، إذ ترتفع الشمس ويتألق ضوؤها، وقيل هو النهار كله[٣]. وكان دليل من ذهب إلى أنَّ (الضحى) ـ في هذه الآية ـ

قد جاء بمعنى النهار هو أنَّ الله تعالى قد عقَّب بذكر (الليل)؛ أي أنَّه قابل بينه وبين الليل، لذا حمل بعضهم هذا التعبير على المجاز المرسل، بعلاقته الجزئية، إذ يُذكر الجزء ويُراد به الكلّ(٤).

وسجى الليل: سكن وهدأ، وليلة ساجية: ساكنة الريح، وسجى البحر: سكنت أمواجه. وقيل إنَّ المراد بـ(سجى الليل): سكون الناس والأصوات فيه(٥)، لذا حُمل هذا التعبير على المجاز العقلي، بعلاقته الزمانية، على أنَّ الليل لا يسكن، وإنما الذي يسكن فيه عن الحركة هم الناس، إذ يميلون إلى الراحة والهدوء، ومن ثمَّ يخلدون إلى النوم(٦).

إذن، فقد صُدِّرت سورة (الضحى) بهذه الصورة الحسيّة البسيطة التي تتناسب مع طبيعة البيئة العربية وقت المبعث؛ إذ يشهد الناس تألق الضوء في ضحوة النهار، ثم يشهدون تلاشي هذا الضوء، شيئا فشيئا، ومن ثمَّ اختفاؤه، حتى يجيء الليل بفتوره وهدوئه، من دون أن يختلَّ نظام الكون أو يكون في توارد الحالين ما يبعث على الإنكار؛ بل من دون أن يخطر على بال أحد أنَّ السماء قد تخلّت عن الأرض وأسلمتها إلى الظلمة والوحشة، بعد تألق الضوء في ضحى النهار، لذا لا عجب أن يفتر الوحي أو ينقطع عن النبي، بعد تألق وظهور.

وهنا تجدر الإشارة إلى أنَّ مادة (سجى) ـ وما يُشتق منها ـ لم ترد في الكتاب العزيز إلا في هذا الموضع تناسبا مع الغرض الذي سيقت له هذه السورة.

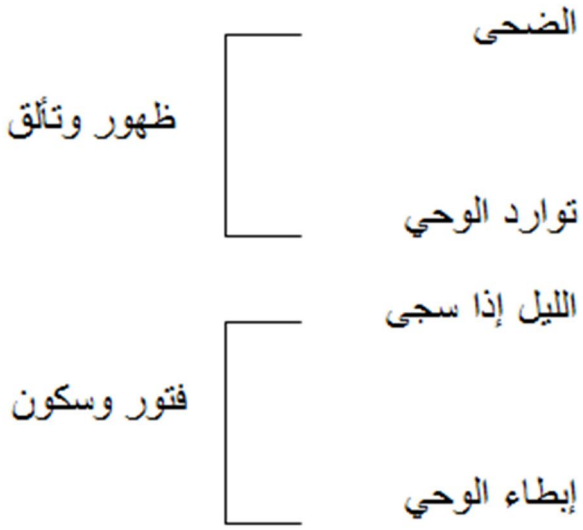

﴿ما ودعَّكَ ربُّك وما قلا﴾، ومادة (ودع) أو (ودَّع) لم تأتِ ـ أيضا ـ في الكتاب العزيز بهذه الصيغة؛ أي بصيغة الفعل الماضي إلا في هذا الموضع، وهي بمعنى: ترك، والتوديع: المبالغة في الترك لفراق، لأنَّ من ودَّعك مفارقا فقد بالغ في الترك، والوديعة: ما يُترك أو يُستودع في مكان أو لدى من يُرجى أن يُؤتمن عليها. أما (القلى) فيُراد به: شدة البغض(٧). وعلّل بعضهم حذف (الكاف) من الفعل (قلى) برعاية

الفاصلة بين لفظتي (الضحى) و(قلى). ومع أهمية الفاصلة القرآنية وما يمكن أن تُحدثه من تأثير في المتلقي؛ بيد أنَّ حذف (الكاف) من الفعل (قلى) قد جاء ليحقّق معنى بلاغيا، يتمثل في أنَّ الله عزَّ وجل قد تحاشى أن يخاطب حبيبه المصطفى بما يعود عليه بالبغض؛ لما في (القلى) من الطرد والإبعاد وشدّة البغض، أما التوديع فلا شيء فيه من ذلك، بل لعلَّ الحسَّ اللغوي فيه يؤذن بالفراق على كره مع رجاء العودة؛ لذا قال عزَّ وجل (**ما ودّعك**)، ولم يقل (ما قلاك)[٨].

من هنا يتبيّن لنا أنَّ الإيقاع الموجود بين كثير من المفردات والآيات القرآنية؛ وبخاصة في السور القصار، لم يكن لإحداث التناسب الموسيقي بينها فحسب، وإنّما له علاقة بالنظم العام لهذه السور، ومعاني مفرداتها وآياتها، والأغراض التي تسعى إلى تحقيقها.

أما اجتماع التوكيد مع التسويف، أي اجتماع (لام التوكيد) مع (سوف) في قوله تعالى:﴿**وَلَسَوفَ يُعطيكَ ربُّكَ فترضى**﴾؛ فيفيد ـ أيضا ـ بأنَّ المصطفى(ص) موضعُ عناية ربِّه في أمسه وغده وما بعد غده، لذا عقَّب بتعداد النعم التي منَّ بها على نبيِّه الكريم:﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾ ليبثَّ الطمأنينة في نفسه؛ على أنَّ من آواه إذ كان يتيما، وهداه إذ كان ضالا، وأغناه إذ كان عائلا، لا يمكن أن يودّعه أو أن يبغضه، فالله عزَّ وجل لم يترك النبي ـ حين كان صبيا ـ يتعرّض لما يتعرّض له الصبية اليتامى من قهرٍ وضياع؛ ولم يدعه ضالا حائرا، من دون أن يهديَه إلى سبيل النجاة، ومن ثمَّ أغناه بفضله وكرمه[٩]. وبهذا تكون نفس النبي قد اطمأنت وتيقنت من عناية الله تعالى ولطفه بها؛ لكي تستقبل هذه النفس المطمئنة، العزيزة، الكريمة، نواهي الله وأوامره في الآيات الثلاث الأخيرة من هذه السورة:﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾.

ومع أنَّ أغلب المفسرين يذهبون إلى أنَّ المراد بـ(قهر اليتيم) هو أن تغلبه على حقه لضعفه[١٠]؛ بيد أنَّ الاستعمال القرآني للفعل (يقهر) يوحي بما هو أدقُّ وأعمق، على أنَّ اليتيم يتأثر ـ عادة ـ بالكلمة العابرة واللفتة الجارحة والنبرة المؤلمة؛ سواء أكان ذلك عن قصد أم من دون قصد، وذلك لفرط إحساسه بوقع اليتم عليه، وبخاصة حين يكون في مجتمع اعتاد على قهره كالمجتمع الجاهلي[١١].

ثمَّ ينهى الله عزَّ وجل نبيَّه الكريم عن أن ينهر السائل، أي أن لا يطرده أو يزجره، بل عليه أن يُحسن إليه إذا ما سأله، ومن ثمَّ أمره بأن يشكر نعمه التي منَّ بها عليه. وبهذا يكون الكتاب العزيز قد قابل بين هذه الآيات الثلاث الأخيرة والآيات الثلاث التي سبقتها:

أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوى ←	فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ
وَوَجَدَكَ ضَالا فَهَدَى ←	وأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ
وَوَجَدَكَ عَائِلا فَأَغْنَى ←	وأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ

وكأنَّ الله عزَّ وجل أراد أن يقول لنبيِّه الكريم: كنت يتيما وتائها وفقيرا، فآويتك وهديتك وأغنيتك، فتعطَّف على اليتيم، وترحَّم على السائل، وأرشد الضالين إلى طريق الحق، مثلما هداك الله إلى دينه القويم، واشكر الله على ما منَّ عليك من نعم[١٢].

وهنا يتنبه الفخر الرازي (٦٠٦هـ) إلى سرٍّ بياني يتمثل في ترتيب الآيات الثلاث الأخيرة في هذه السورة؛ إذ قدّم الله النهي عن قهر اليتيم ونهر السائل على التحدث بنعمته تعالى، على أنَّ الله عزَّ وجل أخّر حقَّه، وهو الشكر وقدَّم حقَّ اليتيم والسائل، فهو غنيٌّ وهما محتاجان، وتقديم حقِّ المحتاج أولى، فضلا عن أنَّه ـ تعالى ـ قرن حقّهما بالفعل ورضي لنفسه بالقول. وفي هذا تنبيه للناس كافّة، ولاسيّما المصلحين والقادة، على أنَّ إصلاح المجتمع يأتي في المنزلة الأولى، وعلى المصلح القائد أن يدفع ـ أولا ـ ذلَّ الفاقدين وقهر اليتامى وحيرة السائلين[١٣].

وبعد أن ختم الله عزَّ وجل سورة (الضحى) بدعوة نبيه الكريم إلى أن يشكر نعمه التي منَّ بها عليه؛ استأنف تعداد هذه النعم في سورة (الشرح) أو(الانشراح) التي نزلت بعد سورة (الضحى) واقترنت بها؛ حتّى أنَّ بعضهم كان يقرأ هاتين السورتين من دون فصل بالبسملة، لما بينهما من تناسب إحصائي وبياني، وكأنَّهما سورة واحدة[١٤]، فيكون عدد آيات هاتين السورتين تسع عشرة آية، أي بعدد حروف (البسملة) ـ التي تكررت كلُّ كلمة منها تسع عشرة مرّة أو ما هو مضاعف التسع عشرة ـ، فضلا عن أنَّ عدد سور الكتاب العزيز يبلغ مائة وأربع عشرة سورة؛ أي من مضاعفات العدد تسعة عشر، وهو العدد الذي يُعدُّ المحور الذي تدور حوله أغلب الدراسات الإحصائية في القرآن الكريم.

ويتمثل التناسب البياني ـ بين هاتين السورتين ـ في تعداد النعم التي منَّ بها على رسوله المصطفى؛ بأسلوب الاستفهام التقريري الذي يحمل المخاطب على الاعتراف بما استقرَّ عنده والإقرار به[١٥]؛ ابتداء من قوله في سورة (الضحى):﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوى﴾؛ مرورا بالآيتين السابعة والثامنة من السورة ذاتها:﴿وَوَجَدَكَ

ضَالًّا فَهَدَىٰ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾؛ والآيات الثلاث الأولى من سورة (الشرح):﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾، وانتهاءً بما تؤول إليه كلُّ هذه النعم، أي الآية الرابعة من سورة (الانشراح):﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾، استكمالا لتعداد النعم، واستحضارا لمظاهر العناية ومواقع الرعاية، وتبشيرا باليسر والفرج[١٦]، بعد أن أمر الله تعالى نبيَّه بشكر هذه النعم وإشاعتها:

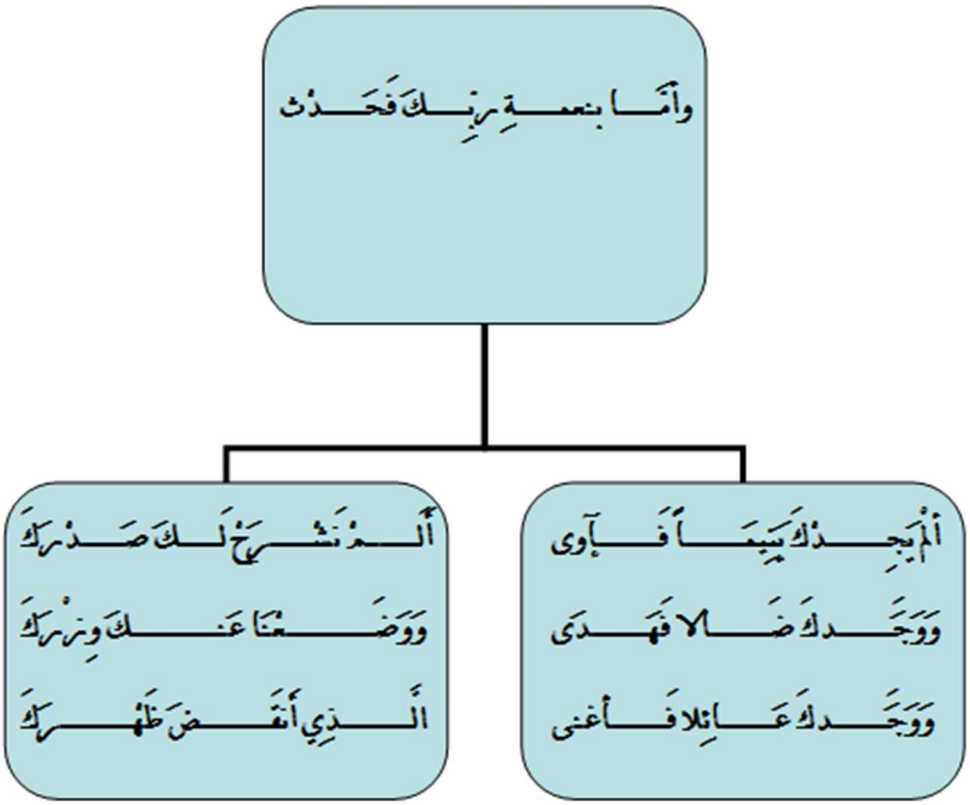

إذن فقد استأنف الكتاب العزيز ـ في سورة الشرح ـ تعداد النعم، بأسلوب الاستفهام التقريري، إذ ابتدأ السورة بقوله تعالى:﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾. ويُراد بـ(الشرح) ـ هنا ـ الشرح المعنوي أو النفسي الذي يدلُّ على الانبساط في النفس والقلب الذي يهدي إلى الإيمان ونور الحق[١٧]؛ ولا يُراد به الشرح المادي الذي يدلُّ على قطع اللحم عن العظم[١٨]، وهو ما ذهب إليه بعض المفسرين، بعد أن ابتعدوا عن الواقع اللغوي وسنن العربية في التعبير، فمن اللافت للنظر أن يروي كثير من المؤرخين والمفسرين؛ كنظام الدين النيسابوري (٨٥٠هـ) ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ : أنَّ جبرائيل قد أتى النبي وشقَّ صدره وأخرج قلبه وغسله ونقّاه من المعاصي، ثمَّ ملأه علما وإيمانا[١٩]. ومثل هذا التفسير يأباه كلُّ عربي يمتلك حسَّ لغته وذوقها الأصيل.

أما المراد بـ(الصدر): القلب، فقد روي عن عبد الله بن مسعود (رض) أنَّ النبي (ص) سئل يوما: يا رسول الله وهل ينشرح الصدر؟ ؛ فقال (ص): نعم، يدخل القلب نور[٢٠]، فعبَّر عن القلب بالصدر مجازا، من باب تسمية الشيء باسم المكان أو المحلِّ الذي يحلُّ فيه. ومنه قوله تعالى:﴿وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[٢١]، وقوله تعالى:﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[٢٢]، وقوله تعالى:﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوْ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[٢٣]. فالمراد بـ(الصدور) ـ هنا ـ: القلوب، لأنَّ الأسرار والمعتقدات تودع في القلوب لا في الصدور، وإنّما عُبِّر بالصدور عن القلوب على سبيل المجاز المرسل، من باب تسمية الشيء باسم محله.

ويتوالى تعداد النعم التي منَّ بها الله عزَّ وجل على نبيه الكريم، بقوله تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾. والمراد بـ(الوضع): الحطُّ والإلقاء والإسقاط، وهو خلاف الرفع[٢٤]، بيد أنَّه لم يستعمل في القرآن الكريم إلا فيما يثقل ويؤود، كالحمل والولادة ، مثلما جاء في قوله تعالى:﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾[٢٥]، وقوله تعالى:﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلاَ تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ﴾[٢٦]، وقوله تعالى:﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾[٢٧].

واستعمل (الوضع) مع (الوِزْر) أو (الوَزَر)، لأنَّ المراد بـ(الوَزَر) أصلا: الجبل المنيع الذي يلتجأ إليه، لذا سمِّي (الوزير) وزيرا، إذ يُعتمد على رأيه ويُلتجأ إليه في تدبير أمور الحكم، أو أنَّه يزر أثقال ما أسند إليه. واستعمل (الوزر) ـ أيضا ـ مع الحرب، في قوله تعالى:﴿حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾[٢٨]، أي: حتّى تضع الحرب أثقالها من آلة حرب وسلاح وغيره. لذا استعيرت الأوزار للذنوب والآثام والهموم بجامع المشقة، ومنه قوله تعالى:﴿ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾[٢٩]، أي لا يُؤخذ أحدٌ بذنب غيره، ولا تحمل نفسٌ وزرَ نفس أخرى. وبهذا يكون معنى قوله تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾: أزلنا عنك همومك التي أثقلتك، فشبّه الهموم بالحمل الثقيل، لأنَّ العرب تجعل الهمَّ ثقلا[٣٠] .

وتعلق الدكتورة بنت الشاطئ على هذه الصورة البيانية قائلة: إنَّ المراد بالوزر ـ هنا ـ الهمَّ النفسي الذي يفوق ألمه الثقل الحسي الممثل به؛ ثمَّ تتابع ـ كعادتها ـ دوران الألفاظ والمعاني في النص القرآني؛ فتجد أنَّ ثمّة علاقةً بين قوله تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾، وقوله تعالى الذي ورد في سورة الضحى:﴿وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى﴾، إذ تفسّر(الضلال) بالحيرة وعدم الاهتداء إلى سواء السبيل قبل البعثة النبوية الشريفة؛ حتّى هدى الله تعالى نبيه ووضع عنك ذلك الوزر الذي بلغ من فداحة ثقله أن أنقض ظهره؛ لفرط ما كان يشعر به (ص) من وطأة الحيرة وضلال السبيل إلى الحق الذي تطمئن به نفسه[٣١] .

ثمَّ يأتي قوله تعالى:﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ استكمالا لتعداد النعم التي منَّ بها الله عزَّ وجل على حبيبه المصطفى. و(الرفع) قد يكون حسيّا ماديّا كرفع البناء ورفع القواعد، ومنه قوله تعالى:﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾(٣٢)، وقد يكون معنويا ليحقق معنى مجازيا، ومنع قوله تعالى:﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾(٣٣). ومنه ـ أيضا ـ الآية التي نحن بشأن الحديث عنها:﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾(٣٤). أما المراد بـ(الذكر) ـ هنا ـ: الشرفُ، ومنه قوله تعالى:﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾(٣٥)؛ أي أنَّ القرآن شرفٌ لك ولقومك. وبهذا يكون معنى قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾: ورفعنا لك شرفك(٣٦)، وحسب محمد أن اصطفاه الله رسولا؛ ليكون له من هذا الاصطفاء ما يجاوزُ كلَّ مطمح لبشر يتيم عائل، ابن امرأة من قريش تأكل القديد، لما للنبوة من رفعة ذكر وجلال قدْر(٣٧).

وإذا جاز لنا ـ في هذا المقام ـ أن نتكلم بلغة الشعر، أو أن نستعير بعض المصطلحات الشعرية، فإنَّ في قوله تعالى:﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾، من المضامين الفنية والنفسية والدينية ما يجعله (بيت القصيد) في سورتي الضحى والانشراح . فـ(الفاء) ـ التي وردت في مطلعه ـ تفيد الترتيب والتقرير، على أنَّ النعم التي تقدَّم ذكرها يؤدي بعضها إلى بعض، أو أنَّ بعضها قد اقترن ببعضها الآخر، فضلا عن أنَّها ـ أي (الفاء) ـ قد قررت ما يترتب على ما سبق بيانه من نعم، وأنَّ هذا التقرير قد جاء مؤكدا بـ(إنَّ)، وبتكرار الآية:﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ مرتين، ليبثَّ ـ هذا التوكيد المزدوج ـ الطمأنينة في نفس النبي ويزيدَ من يقينه بأنَّ من آواه، وهداه ، وأغناه ، وشرح صدره ، ووضع وزره ، ورفع ذكره...، لا يمكن أن يودِّعه أو أن يُبغضَه(٣٨).

ومع أنَّ بناء السور القصار يقوم ـ غالبا ـ على أساس مزدوج يتمثل في قصر السورة؛ من حيث عددُ آياتها وقصرُ الآية الواحدة، ليوحي بجدِّ الخطاب وأنَّ الأمر لا يحتمل التفصيل أو الإطالة، تناسبا مع طبيعة المرحلة التي نزلت فيها أغلب هذه السور، ونعني بها مرحلة الخطاب القرآني الأول، فقد ورد مثل هذا التكرار المؤكد في السور المكية الأولى، لأنَّ العهد بالرسالة قريب، والإسلام لّما يزل يافعا، وهو ما يحتاج إلى توكيد بعض المعاني لترسيخها في الأذهان والنفوس(٣٩). ويمكن أن نمثل لذلك بقوله تعالى:﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ وما أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾(٤٠)، وقوله تعالى:﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾(٤١)، وقوله تعالى:﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾(٤٢).

وثمّة سرٌّ بيانيٌّ آخر، يتمثل في استعمال (مع) بدلا من (بعد)، أي أنَّ الكتاب العزيز لم يقل: إنَّ بعد العسر يسرا، وإنّما قال:﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾، لأنَّ (بعد) تفيد بأنَّ هناك فاصلا زمنيا بين العسر واليسر، في حين

تدلُّ (مع) على المصاحبة. وهذا يعني أنَّ مع كلِّ عسرٍ يسرا يصاحبه، بل إنَّ مع كلِّ عسر يسرين؛ لأنَّ (الألف واللام) في (العسر) للعهد لا للاستغراق. ويُراد بهذا (العسر) ما كان يشعر به الرسول من ضيق وثقل العبء وفداحة الأمر. وبهذا يكون الكتاب العزيز قد حدّد العسر، في حين لم يحدد اليسر إذ نكرَّه، والتنكير يفيد العموم والإطلاق(٤٣).

وتختم سورة (الانشراح) بقوله تعالى:﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾. والفراغ: الخلو بعد الامتلاء، وهو خلاف الشغل. ويكون ماديا تارة، كفرغ الإناء، أي: خلا بعد امتلاء، ومعنويا تارة أخرى، كفرغ باله، أي: خلا ممّا كان يشغله. ومنه قوله تعالى:﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا﴾(٤٤)، أي: خاليا من الصبر.

وقد يأتي (الفراغ) بمعنى القصد، إذ تقول: سأفرغ لفلان، أي: سأجعله قصدي، على سبيل التهديد والوعيد، على أنَّ في الفراغ معنى ليس في القصد. ألا ترى قولك: سأفرغ لك يتضمن من الوعيد ما لا يتضمنه قولك: سأقصد لك(٤٥)؛ ومنه قوله تعالى:﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ﴾(٤٦).

أما (النَّصَبُ) فيراد به: القيام والشخوص والتعب والجهد والإعياء. وهمٌّ ناصب: ذو نصب، أي: مرهق مجهد، ومنه قول النابغة: (الطويل)

كليني لهمٍّ يا أميمةُ ناصبِ وليلٍ أقاسيه بطيءِ الكواكبِ

وعيشٌ ناصبٌ: فيه كدٌّ وجهد، ومنه قول أبي ذؤيب الهذلي: (الكامل)

فغبرتُ بعدهُمُ بعيشٍ ناصبٍ وأخالُ أنّي لاحقٌ مُستَتبَعُ (٤٧)

وفي الحديث الشريف:((إنَّما فاطمةُ بَضعةٌ منّي يُؤذيني ما آذاها ويُنصِبُني ما أنصبها))(٤٨)، أي: يتعبني ما أتعبها. ونصب القلم: أقامه شاخصا. والأنصاب: الأحجار الشاخصة والأوثان. ونصبته للأمر حمّلته عبئه، لذا سمّي المنصب منصبا لأنَّ من يكلف به يحتمل عبئه(٤٩).

إذن، فقد دعا الله عزَّ وجل حبيبه المصطفى إلى أن يقوم إلى عبادته ويتوجه إليه جهد طاقته؛ لقاء ما منَّ به عليه من يسرٍ، إذا ما فرغ باله ممّا كان يشغله ويضيق صدره وينوء بحمله، إذ خاطبه تعالى:﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾.

أما السرُّ البياني في قوله تعالى:﴿**وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ**﴾ فيتمثل في تقديم شبه الجملة (إلى ربِّك) على الجملة الفعلية (ارغب). ولم يكن ذلك رعاية للفاصلة فحسب وإنّما لكي يفيد ـ هذا التقديم ـ القصر والتخصيص؛ أي أن تختصَّ الرغبة بالله وحده وتقتصرَ عليه (٥٠).

الخاتمة:

وبعد، فهذه هي أهم المضامين الفنية والفكرية في سورتي (الضحى) و(الانشراح) التي تدلُّ ـ فيما تدلُّ عليه ـ على أنَّ بناء هاتين السورتين يقوم على أساس مزدوج؛ يتمثل في: قصر السورة، من حيث عدد

آياتها، وقصر الآية الواحدة، كما هي الحال في أغلب السور القصار، ليوحي بجدِّ الخطاب، وأنّ الأمر لا يحتمل التفصيل أو الإطالة، وهذا يتناسب مع طبيعة المرحلة التي نزلت فيها أغلب هذه السور، ونعني بها مرحلة الخطاب القرآني الأول، وأنَّ الإيقاع الموجود بين كثير من المفردات والآيات التي وردت في السور القصار لم يكن لإحداث التناسب الموسيقي بينها فحسب، وإنّما له علاقة بالنظم العام لهذه السور ومعاني مفرداتها وآياتها والأغراض التي تسعى إلى تحقيقها، كما هي الحال في حذف (الكاف) من الفعل (قلى)، في الآية الثالثة من سورة **(الضحى)**.

أما الصور البيانية ـ التي وردت في هاتين السورتين ـ فقد كانت صوراً حسيّة، بصرية، بسيطة، ذلك بأنَّ التعبير القرآني تعبيرٌ فنيٌّ أُريد به التأثير في متلقيه، وأنَّ هذا النوع من الصور يتناسب مع طبيعة البيئة العربية والمتلقي العربي وقت المبعث؛ وأنَّ القرآن الكريم ـ وبخاصة في سوره القصار ـ حين صوّر البيئة العربية ـ على بساطتها ـ تصويراً صادقاً؛ ونقل مشاهدها المتشابهة، بعد أن منحها علاقات جديدة موحية ومؤثرة، فإنَّ ذلك لا يدلُّ على ضعفٍ في خيال مَنْ خاطبهم أو قصورٍ في أذهانهم، وإنّما عبّر عمّا يمكن أن يدركه العربي، حسّاً وعقلاً وتخيّلاً، لأنّه يصعب أن يرجع إلى نمطٍ من الخيال إلا إذا كان له أساس من أحاسيس من خاطبهم وعقولهم.

أما الذين أنكروا وجود المجاز في كتاب الله العزيز فيمكن أن يكونوا قد ابتعدوا عن أصول العربية وسننها في التعبير؛ أو أنّهم اخضعوا قضية (المجاز) إلى قوانين ليست لها أو خارجة عنها، مثلما فعل بعض علماء العربية حين ابتعدوا عن الواقع اللغوي العربي الصحيح واحتكموا في كثير من القضايا اللغوية والنحوية والنقدية والبلاغية ـ ومنها المجاز ـ إلى معايير دينية ومنطقية أو أخلاقية؛ ذلك بأنَّ وجود المجاز في العربية يقتضي وجوده في القرآن الكريم أيضا، أي أنّنا لا يمكن أن نبحث في وجود المجاز في القرآن الكريم بمعزل عن وجوده في العربية أصلاً؛ لأنّ القرآن الكريم قد نزل بلغة العرب، وعلى وفق أساليبهم التي يفقهونها، وأنَّ كلَّ ما ورد من مجازات وتخييلات في الكتاب العزيز، إنّما هي مجازات وتخييلات من جهة المتلقي وليس من جهة المبدع، ذلك بأنَّ للقرآن الكريم غرضا فنيا خالصا، يتمثل في التأثير في متلقيه تأثيرا نفسيا بالغاً؛ لكي يحملهم على الإيمان بالإسلام والتصديق به، وأنَّ العرب قومٌ يهزّهم البيان، فضلا عن الأغراض الدينية والأخلاقية التي يشترك فيها مع الكتب السماوية الأخرى.

وفي ضوء ما تقدم، فإنَّ الإعجاز البياني في القرآن الكريم يتجلّى في السور القصار مثلما يتجلى في السور الطوال؛ بل جاء أكثرَ جلاء في السور القصار، على أنَّ أغلب هذه السور قد نزل في العهد المكي، وهي مرحلة الخطاب القرآني الأول الذي يتطلب نمطا خاصا من البيان للتأثير في نفوس متلقيه؛ أولئك القوم الذين طالما كان هذا البيان المعجز يهزُّهم، بل كان سببا في إسلام كثير منهم. وهذا ما يفسِّرُ لنا حرص المشركين على أن يصدّوا العرب عن سماعه، بعد أن أدركوا خطره وقوة تأثيره في النفوس،

بوصفه نصّا بيانيا امتلكهم، إذ رأوا فيه بيانا ونظما لا عهدَ لهم بهما من قبل، وليس نصّا تشريعيا، كشف لهم عن أسرار الكون والإنسان، أو أنَّه قدَّم لهم نظاما جديدا للحياة.

إذن باللغة تغيّر كيانهم، وباللغة تغيرت حياتهم، لذا لا يمكن الفصل، على أي مستوى، وبأيّة حال من الأحوال، بين الإسلام والقرآن من جهة والعربية من جهة أخرى. ولكي نفهم النص القرآني لابدَّ من فهم لغته أولا، بل ليس لأحدٍ أن يفهم الإسلام من دون أن يسبر أغوار العربية.

Abstract

This paper is intended to analytically investigate two Makki Short Suras, namely**:** **Al-Inshirah (**The Opening Up**)** and **Ad-Duha** (Early Hours of Morning) in order to shed light on the aesthetic, religious, and intellectual content. Since these two Makki Suras represent the starting point of Qurannic Discourse - which at that early stage required a very peculiar type of rhetorical discourse to influence its audience- this research proposes that these two suras are characterized by a distinctive aesthetic structure that distinguishes them from other Makki Suras.

Consequently, the paper concludes that these two Suras, like many other Short Suras, are based on duality of structure i.e. being short Suras and having short verses to suggest solemnity of Qurannic Discourse and at the same time to show that their Qurannic essence does not need elaboration or prolongation. Still, it is obvious that the assonance (harmony) which characterizes the various vocabularies and verses employed in these suras is not only meant to create musical harmony, but they also have to do with the general structure of these suras including their words, verses and aims they seek to fulfill.

Hence, they are full with rhetorical perceptible visualized simple images that echo the Arabian setting and Arabic audience at the revelation time. Furthermore, the rhetorical inimitability of the Holy Quran has the same effective presence which it has in Long Suras. Nevertheless, it has a clearer presence in Short Suras for the aforementioned reasons.

As for those who challenge the fact that the Holy Glorious Quran does have a rhetorical content, it seems they are not familiar with Arabic language principles and fundamentals of discourse on one hand. On the other hand, they, like many Arab linguists who discarded their linguistic environment and employed different religious, logical or ethical rules to deal with the linguistic, grammatical, critical and rhetorical dilemmas that faced them, might have applied the wrong scales or rules to the rhetorical issue .

هوامش البحث

(١) أنظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لمحمد بن جرير الطبري، تحقيق: محمود محمد شاكر: ١٤٨/٣٠، و الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، جار الله محمود الزمخشري:٧٦٥/٤، ومجمع البيان في تفسير

القرآن، لأبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي:٥٠٤/١٠، والبحر المحيط، لأبي حيّان الأندلسي:٤٨٤/٨،٤٨٥، والتفسير البياني للقرآن الكريم، د. عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ):١٧/١.

(٢) أنظر: الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم:٨٥/١،٨٦.

(٣) أنظر: لسان العرب، ابن منظور: مادة (ضحا).

(٤) أنظر: الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، تحقيق: مصطفى السقا: ٩١/٢٠، والإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز، عز الدين بن عبد السلام:٦٧.

(٥) أنظر: لسان العرب، مادة (سجا).

(٦) أنظر: أصول البيان العربي في ضوء القرآن الكريم، د.محمد حسين الصغير:٦١.

(٧) أنظر: المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصبهاني، ولسان العرب، مادة (ودع) و (قلا).

(٨) أنظر: التفسير البياني للقرآن الكريم:٢٩/١.

(٩) أنظر:المصدر نفسه:٣٦/١

(١٠) أنظر: الكشاف:٧٦٨/٤، ومجمع البيان:٥٠٦/١٠.

(١١) أنظر: التفسير البياني للقرآن الكريم:٤٦/١

(١٢) أنظر: الإبداع البياني في القرآن العظيم، الشيخ محمد علي الصابوني:٤١٣، ٤١٤

(١٣) أنظر: مفاتيح الغيب، المعروف بـ(التفسير الكبير)، الفخر الرازي:٢٢١/٣١، والتفسير البياني للقرآن الكريم:٤٩

(١٤) أنظر: التبيان في تفسير القرآن، لشيخ الطائفة الطوسي، تحقيق وتصحيح: أحمد حبيب قصير العاملي: ٣٧١/١٠، ومفاتيح الغيب، المعروف بـ(التفسير الكبير):٢/٣٢

(١٥) أنظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، د.أحمد مطلوب:١٩٠/١.

(١٦) أنظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين البقاعي:٤٥٨/٨-٤٦٠، وفي ظلال القرآن، سيد قطب:٣٩٢٩/٦، والتفسير البياني للقرآن الكريم:٢٠، ٥١

(١٧) أنظر: المصدر نفسه:٥٤/١.

(١٨) أنظر: لسان العرب، مادة (شرح).

(١٩) أنظر: غرائب القرآن، نظام الدين النيسابوري:١١٥/٣٠.

(٢٠) أنظر: الجامع لأحكام القرآن:٨١/١٧

(٢١) الحديد:٣.

(٢٢) التغابن:٤

(٢٣) الملك:١٣.

(٢٤) أنظر:المفردات، ولسان العرب، مادة (وضع).

(٢٥) آل عمران:٣٦.

(٢٦) فاطر:١١، وفصلت:٤٧

(٢٧) الأحقاف:١٥.

(٢٨) محمد:٤

(٢٩) الأنعام:١٦٤.

(٣٠) أنظر: تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، تحقيق: السيد أحمد صقر:١٠٦، والمفردات، مادة (وزر)، ومجمع البيان:٥٠٨/١، ولسان العرب، مادة (وزر)، والتفسير البياني للقرآن الكريم:٥٧/١، ٥٨.

(٣١) أنظر: المصدر نفسه:٦١/١.

(٣٢) البقرة:١٢٧.

(٣٣) الزخرف:٣٢.

(٣٤) أنظر: لسان العرب، مادة (رفع)، والتفسير البياني للقرآن الكريم:٦١/١.

(٣٥) الزخرف:٤٤.

(٣٦) أنظر: لسان العرب، مادة (ذكر).

(٣٧) أنظر: التفسير البياني للقرآن الكريم :٦٣/١.

(٣٨) أنظر: المصدر نفسه:٦٣/١، ٦٤.

(٣٩) أنظر: المصدر نفسه:٦٣/١.

(٤٠) القدر:١-٣.

(٤١) التكاثر:٣-٥.

(٤٢) الكافرون:١-٥.

(٤٣) أنظر: التفسير البياني للقرآن الكريم:٦٥/١، ٦٦.

(٤٤) القصص:١٠.

(٤٥) أنظر: كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر)، أبو هلال العسكري، تحقيق: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم:٢٩٩.

(٤٦) الرحمن:٣١.

(٤٧) أنظر: كتاب شرح أشعار الهذليين، صنعةُ: أبي سعيد السكري، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، ومراجعة: محمود محمد شاكر: ٨، و المفردات، ولسان العرب، مادة (نصب)

(٤٨) سنن الترمذي، للإمام محمد بن عيسى بن سُورَة الترمذي: ١١٣٣

(٤٩) أنظر: المفردات، ولسان العرب، مادة (نصب)

(٥٠) أنظر: الكشاف:٧٧٢/١، و التفسير البياني للقرآن الكريم :٧١/١.

قائمة المصادر و المراجع

- **القرآن الكريم**
- الإبداع البياني في القرآن العظيم، محمد علي الصابوني، المكتبة العصرية، صيدا بيروت، ط١، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٦م.

- الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي (٩١١هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز، عز الدين بن عبد العزيز بن عبد السلام (٦٦٠هـ)، مطابع دار الفكر، دمشق، (د.ت).
- أصول البيان العربي في ضوء القرآن الكريم، د. محمد حسين علي الصغير، دار المؤرخ العربي، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
- البحر المحيط، لأبي حيّان الأندلسي (٧٥٤هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.
- تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة (٢٧٦هـ) تحقيق: السيد احمد صقر، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركائه، القاهرة،١٣٥٤هـ - ١٩٧٣م.
- التبيان في تفسير القرآن، لشيخ الطائفة الطوسي (ت٤٦٠هـ)، تحقيق وتصحيح: أحمد حبيب قصير العاملي، مطبعة النعمان، النجف الأشرف، ١٣٨٣هـ-١٩٦٣م.
- التفسير البياني للقرآن الكريم، د.عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، دار المعارف، مصر، ط٢، ١٩٦٦م.
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري (٣١٠هـ)، تحقيق: محمود محمد شاكر ، دار المعارف، القاهرة ، ١٩٦٨م.
- الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (٦٧١هـ)، تحقيق: مصطفى السقا، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٦٧م.
- سنن الترمذي، للإمام الحافظ أبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، (٢٧٩هـ)، دار الفكر، بيروت، (د.ت).
- غرائب القرآن ورغائب الفرقان، نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمّي النيسابوري(٨٥٠هـ)، بهامش تفسير الطبري (جامع البيان في تفسير القرآن)، دار المعارف، القاهرة ، ١٩٦٨م.
- في ظلال القرآن، سيّد قطب، دار الشروق، بيروت، ط١٠، ١٤٠١هـ - ١٩٨٠م .
- كتاب شرح أشعار الهذليين، صنعة: أبي سعيد السكري (٢٧٥هـ)، تحقيق: عبد الستار أحمد فرّاج، راجعه: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، (د.ت).
- كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر)، أبو هلال العسكري (٣٩٥هـ) تحقيق: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركائه، (د.ت).
- الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، للإمام جار الله محمود بن عمر الزمخشري (٥٣٨هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٣٦٦هـ - ١٩٤٧م.
- لسان العرب، ابن منظور (ت٧١١هـ)، دار صادر، بيروت، (د.ت).
- مجمع البيان في تفسير القرآن، أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي (٥٤٨هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٧٩هـ.

- معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، د. أحمد مطلوب، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.
- مفاتيح الغيب، المعروف بـ(التفسير الكبير)، للإمام الفخر الرازي (٦٠٦هـ)، دار الكتب العلمية، طهران، ط٢، (د.ت).
- المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصبهاني (٥٠٢هـ)، أعدّه للنشر وأشرف على الطبع: محمد خلف الله، الأنجلو المصرية، القاهرة،١٩٧٠م.
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للإمام برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي (ت٨٨٥هـ)، خرَّج آياته وأحاديثه ووضع حواشيه: عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.